هذا انت

بقلم : يوسف جوهر

كان ينظر من الشرفة الى شجرة فى الطريق .. وكره الشجرة .. انها دائمة جافة جرداء الغصون فى الصيف والشتاء .. وتمنى كما تمنى من قبل لو تهوى عليها فأس وتقطعها عندما اقتحمت انفه رائحة القهوة . وعرف ان زوجته فريدة التى تمشى بخطوات لاصوت لها قادمة بالصينية والفنجالين .. واستدار ليستقبلها وهو يحس أن بينها وبين الشجرة شبها . الحياة معها لاطعم لها .. انه أحيانا يشرب قهوته وهو يرتدى ملابسه ثم لايدرى ان كان شربها حقا الا عند العودة الى الفنجال والنظر فى قاعه .. كذلك هى .. ينظر اليها ولكنه يراها من الذاكرة .. عشر سنين زواج كافية لكى يحفظها عن ظهر قلب .. صورة وصوتا .. ليس من الضرورى أن يسمعها لكى يعرف انها تتحدث اليه عن ذلك الالم فى جنبها .. أو عن حذاء الولد الذى بلى .. أو عن شكوى البنت من مدرسة تضايقها .

وهو يستطيع أن يتنبأ بأن الشاى على مائدة الفطور سيكون خفيفا . وسيحتج كما يفعل دائما .. وانها ستلومه لانه ينفض رماد سيجارته فى اى مكان الا الطقطوقة التى وضعتها أمامه ، ولكنه لن يتوب .

.. ثم قبلة وداع عندالباب ، وليست حارة ولا باردة .. الولد والبنت يلعبان أمام باب البيت فى انتظاره .. سيوصلهما الى المدرسة سيرا على الاقدام تخففا من نفقات الاتوبيس .. زوجته تقول له كلما ضاق بهذا : « انه يوفر لنا شيئا ويوفر لك صحتك .. وزنك بدأ يزيد .. وهو لايستطيع أن يعترض

فانها تقاسمه المشقة .. هي التي تذهب لتصحبهما من المدرسة بعد الظهر .

طيبة انت يافريدة ولكنك سقتني في طريق التقشف وانا لاادري .. وقد قطعت فيه شوطا بعيدا . بعد العهد بيني وبين كل مرة .. هدفنا واحد أن ندخر كل قرش لنسدد قسط البيت الذي أقامته لنا الجمعية التعاونية .

وعندما تذكر القسط فضل ان يمشي الى مقر عمله .. حقا قلما ادركه الكمسارى في زحام الصباح ، ولكن ذلك يحدث في احترامه لنفسه خدشا طفيفا .. وقد كثرت الخدوش الطفيفة .

انه رئيس حسابات الشركة .. والبواب يفتح له المصعد باحترام يوحي بانه قادم في سيارته الخاصة او على الأقل في تاكسي .. وعندما يصل المصعد الى الطابق الذي تحتله الشركة يهرع اليه الساعي ليحمل حقيبته الانيقة .. والموظفون يحيونه باحترام .. وسكرتيرته رجاء تقف حالما تراه وعلى محياها ابتسامة طيبة .

ولكنه يعرف انه لا هو ولا حقيبته يستحقان هذا الاحترام كله .. فان في الحقيبة الى جوار الملفات الهامة جريدة قديمة ملفوفة على بعض الشطائر ، لانه لايعود الى بيته في الظهر . بعض ايام الاسبوع .

وقد قال لنفسه انه يكره المطاعم .. ويشك في اتباع الطهاة اصول النظافة .. واخفى عنها انه يفعل ذلك لاسباب اقتصادية .

خدوش طفيفة ليس آخرها انه لايخرج علبة سجائره ليدخن الا اذا راى السيجارة مشتعلة بين انامل ضيفه .. ولايطلب له القهوة الا وهو منهمك في حديث تليفوني او في النظر الى ورقة . لكي ينسى في غمار انشغاله الالحاح في الدعوة .. حاشا ان يفعل ذلك عن عمد وتدبير فانه صار ملكة وطبعا لايحاسبه عليه احد ولكنه يحاسب نفسه حسابا يهدأ احيانا .. ويلتهب احيانا مثل الجلد المصاب بالحكة مايكاد صاحبه يلمسه حتى يهيج .

حادث صغير جعله اليوم يهرش ذاكرته .. عبثا يطلب اليها ان تهدأ وتستكين . رفع سماعة التليفون وقبل ان يطلب الرقم سمع ضحكة ناعمة تدغدغ صوتا رقيقا يتحدث .. وادرك ان خطه مشتبك بخط آخر .. وهم أن يعيد السماعة الى مكانها ولكنه تريث ، فان الحديث كان جذابا ، يغري بالفضول .. الضحكة الناعمة كانت تصد صوتا خشنا يسأل لقاء عاجلا .. خشونة آمرة مغلفة بذلك التوسل الذي يطيب للانثى .. أنثى تتمنع ذلك التمنع الذي يحمل خبيث الرضا .

وتنفصل الخطوط المتشابكة .. وتختفي هذه الاصوات المترنمة بالسعادة ويجد احمد السماعة في يده وقد نسي الرقم الذي كان موشكا ان يطلبه ..

تمنى لو انه كان ذلك الرجل الذي يرجو ويتوسل .. لو أنه هدف ذلك الصد الرقيق .. وحك راسه وهو يبتسم لفضاء الحجرة ابتسامة كسيرة .. ولكن اصابعه اصابت تحت فروة راسه ذلك العرق الذي يتصل بالذاكرة .. وهاجت خواطره .

في الايام الخوالي كانت له هو ايضا مواعيد رقيقة .. وكان يستطيع ان يدير راس الفتاة التي يريد بالقول

المعسول .. ذاق من قبل حلاوة العذاب فى الحب .. العاطفة التى كان يشبعها الوصال كانت تهدأ ثم تموت .. ينبغى ان تتألم لكى تكون عاشقا حقا .. وان تجد فى حلقك العضة التى دفعت فرتر الى الانتحار بعد موت شارلوت .. مع فارق بسيط انه ليس من الضرورى ان تنتحر فى عصرنا هذا.. يكفى ان تمرض من الحب .. وحسبك هذا دليلا على ان قلبك حى ينبض .

وتنهد احمد وهو يتذكر زوجته فريدة .. كانت احلى مغامراته .. عندما كان يسمع صوتها فى التليفون كانت عروقه كلها تتحول الى اسلاك متصلة بصوتها .. مالعروقه الآن قد اصابها التصلب ، وصارت موصلا رديئا للارسال والاستقبال .. سخفا لهذه الحياة الرتيبة .. الولد عاد من المدرسة مرتفع الحرارة هل استدعى الدكتور ياأحمد .. اختك رتيبةتريد ان تزورنا مساء الخميس هل يلائمك الموعد .. ليس عندنا شيء للعشاء احضر معك بعض السجق ..

دخل عليه الساعى وصوت زوجته يطن هكذا فى اذنه ..رفع رأسه وتصور لحظة ان زوجته هى الموجودة داخل ملابس هذا الساعى . انها مولعة بالخدمة .. خدمة الآخرين .. انها تنسى نفسها فى بيتها ، ولاتمنح نفسها الا القليل . حقا ان الزواج شركة .. ولكن التعب هو البضاعة الوحيدة الموجودة على رفوف الشركة .. شركة على بابها نحاسة علاهاالصدأ .. مكتوب فيها : « حياة لاطعم لها » .

ياأحمد يجب ان يكون لحياتك طعم .. مصطفى وكيل الحسابات يتحدث عن مغامراته بوحى يطفح بالبشر والتفاؤل .. له كل يوم حكاية مع فتاة .. انه يصول ويجول فى ميدان كنت من فرسانه .. انت اولى بانتصاراته .. جرب .. حطم القوقعة التى حبست نفسك داخلها .

ورفع سماعة التليفون .. هناك رقم مازال عالقا بذاكرته .. لم يستعمله منذ تزوج ..

وأسعده أن درية عرفته ، ورحبت بأن تراه ..

وذهب الى الموعد بعد أن حلق ذقنه بعناية ، وتأنق ماوسعه التأنق .

واحسرتاه .. انى جئت يادرية من اجل شعرك الاشقر .. ماذا صيره أسود .. أشياء كثيرة فيك صارت لها صنعة جديدة .. حتى الضحك فى عينيك تغير ايضا لونه .. اللون القديم كان احلى .. تركت نفسك تسمنين.. اين عودك الهش الضئيل الذى كنت أخاف ان ينكسر تحت ساعدى اذا حصرته . وسمانة ساقك التى كانت رائعة صارت حبلى كعضلة مصارع .. ليتنى ماعتنيت بهندامى وطاردت بالملقاط الشعرات البيض لكى أكون فى مستوى الموقف .

الموقف محرج يادرية .. لست المغامرة التى اهفو اليها .. كل ماأملكه لك ان اسمع شكواك من الايام ..ظللت ترفضين الخاطبين .. لأنك وجدتهم خونة .. طلاب مال أو متعة .. هل انت واثقة مما تقولين .. سأصبح بعد قليل احد هؤلاء الخونة .. يشق على ان أصارحك ان لقاءنا لن يتكرر .. هل يكفى التلميح .. انا الآن زوج يادرية .. زوج واب احمل على كتفى جبلا من

المسئوليات والهموم .. كنت اظن ان شبح زوجتى عندما استحضره لك سيفزعك .. ولكنك ثابتة القلب .. تريدين ان ترفعى عنى ظلم زوجه لم اتظلم منها .. وتخفين الى نجدتى قبل ان أستغيث .. والمح لك انى لاافكر فى العبث بثقة زوجتى ، ولكنك ترفضين ان تفهمى .

وهل حقا لم افكر فى العبث بهذه الثقة ؟!..

وضحك من نفسه .. فقد جاء الى الموعد واهدار هذه الثقة فى حسابه .. ولكن استعمال زوجته سلاحا يدفع به دريةجعل اثمه فى نظره ، ثمين .

ومع ذلك لم يعد به هذا الشعور الى منطقة الضمير .. اندريةقبل أن تذهب قدمت له ، من حيث لاتدرى اقتراحا بالمغامرة التى يصبو اليها .. فقد تحدثت عفوا عن سهام .. وكيف أن الرجال لايعبدون الا مثيلاتها من الفتيات العابثات .

فى اليوم التالى طلب سهام فى التليفون .. عرفت صوته فى الحال بعد كل هذه السنين .. شحنه ذلك بالثقة . واطربه أنها فرحة بحديثه .. وتانى لكى تطلب هى الموعد .. وعندما فعلت راودته لذة خفية فى أن يصدها . انه لممتع أن يكون المرء سيد الموقف .. وبعد أن وضع السماعة بدأ يلوم نفسه .. كيف مضت كل هذه السنين من غير أن يرى سهام .. فى الماضى كانت تطارده .. كانت مجنونة به .. ولكنه كان قد دخل منطقة الاتزان ، وكان يدور فى فلك فريدة ، الفتاة التى تزوجها من بعد .. ولم يكن ثمة قوة تقدر ان تجذبه .. اما الآن فانه يحس ان قانون الجاذبية معطل منذ زمن ..

صوت سهام على سلك التليفون مايزال ساخنا مشحونا بالجراة والرغبة .. كعهده بها فى الايام الخوالى لم يكن يطيب لها خضر العذارى . أنها تصرخ فى البوق : «كيف أنساك .. المرأة لاتنسى أبدا رجلا هرب منها وحرمها متعة أن تكون البادئة بالهجر .. نلتقى غدا .. غدا بعيد .. لو نلتقى الليلة اكون اسعد » .

ووضع السماعة بيد ترتجف .. ماتزال مجنونة ، ولكن مرحبا بالجنون.

الساعة الآن العاشرة صباحا .. الوقت يتسع لتدبير سهرة خليقة بالمناسبة المهولة .. جعل يقلب الصحف ، « أين تسهر هذا المساء» العنوان الذى كان بصره يتخطاه دائما يشعر اليوم انه موجه له بالذات .. انه كتب خصيصا من أجله .

وبعد بحث دقيق استقر عزمه على أن يدعو مرفت الى ذلك العشاء الراقص .. ويحك ياأحمد .. التذكرة بخمسة جنيهات .. ياراجل السندوتش تدفع عشرة جنيهات فى تذكرتين .. خيل اليه أن الجبن القريش القابع فى الرغيف الصغير داخل الحقيبة الانيقة ينظر اليه فى هلع .. وقال لنفسه هو يروع من تلك النظرة : «أنا مدير حسابات . . ضقت ذرعا بالحساب العسير .. ان هى الا نزوة لن تتكرر .. كل الدفاتر مهما تكن منتظمة تقع فيها أغلاط .

وطافت برأسه فكرة ارتجف منها لو أن هذا الرغيف الصغير وشى به لزوجته .. أن تضبطه فريدة متلبسا بالخيانة لم يكن شاغله الكبير . الخيانة

هى ثمرة المغامرة وبهجتها ·· جزء من متعته أن يتظاهر بعدكل الذى سيحدث بانه ملاك ·· ولكن الذى يخشاه حقا أن تضبط زوجته هذا العجز فى الميزانية عشرة جنيهات كاملة ·· انهـــا تعرف مايقبضه بالقرش والمليم ·· حقا انه رئيس حسابات ولكن فريدة هى السلطة العليا ·· انها الرقابة الادارية ·

ومشى الى الموعـد وهو يفـــكر فى الطريقة التى سيعلن بهاضياع الجنيهات العشرة·· نشلت يا فريده·· صديق لى عرضة أن يحبس فى دين نفقة ·· عجز فى الخزينـــة غطيته قبـــل أن ينكشف الامر ·

ثم زجر مخاوفه ·· لماذا ينغص نفسه الآن ·· الآن لاينبغى أن يفـكر لا فى سهام ·· ستوافيه فى السادسة تماما وسيبقى معها حتى منتصف الليل ·· ربما الثانية صباحا ·· هـذا لن يقلق زوجته ·· عودها أن يغيب كثيرا فى آخر السنة المالية · ·ومن حسن الحظ أن البيت ليس به تليفون يمكنهـــــا من تعقبه ·

السادسة بالضبط كان مرابطا فى بار شبرد ووجهه الى الباب ·· ووثب قلبه وسهام قادمة تخطر كالغزال ·· الاعوام لم تفعل بها ما فعلته بدرية ·· واحتوت الجالسين بنظرة سريعة ·· وتخطته نظرتها ثم جلست بسرعة فى مقعد بعيد، باسرع من محاولته النهوض لاستقبالها ·· واضطر أن يذهب اليهـا وقد خامره الاستياء ، انها لم تلحظه لاول وهلة ·· واستقبلته وهو يتجه اليهـــا بنظرة متحفظة ·· ثم هتفت وهى تمد له يديها الاثنتين :

ـ لم أعرفك فى البداية ·· شـــد ماتغيرت» ·

ما أحلى هذا اللقاء ·· وما أحلى أن يتحدث الى سهام من السادسة الى الثامنة مع كأس أو كأسين من الويسكى ·· ثم يذهبان الى ذلك العشاء الراقص ، وفى الرأس والقلب نشوة ·· جميلة كمـا كنت دائما ياسهام ·· لم تزيدى فى العمر ولا سنة واحدة ·

وتركته يمسك يدها وهما يتحدثان ولكن يدها كانت باردة ·· وصوتهـا الذى كان ساخنا فى التليفون صـــار دافئا فقط ·· دفء المودة بين أصدقاء قدامى ·· حدثنى ياأحمد عن أولادك·· عن زوجتك ·· هل هى جميلة ·· هل أنتما على وفاق ·· ليس أجمل فى الحياة من الوفاق بين زوجين ·

وحاول أن يتجنب الحديث عن فريدة ولكنها ظلت تلح فيه حتى أوشـك أن يصرخ بها :

ـ ميزتك كانت الجنون ·· لا مأرب لى فى عقلك ·

ولكنه آثر أن يصبر قليلا · ·وعدل عن الثورة الى القول : «حـدثينى عن نفسك ·· اننى هنا من أجلك ·· لامن أجل زوجتى » ·

سأقدم لك تقريرا يا أحمد بقـدر ما تسعفنى الذاكرة ·· بعد أن تزوجت أنت وهجرت أصحابنا ·· هجرتهم أنا أيضا ·· وعملت مضيفة جـــوية · · ·· الطوف بالعالم كان وسيلتى لـكى أنسى أشياء كثيرة ··

وحدث نفسه : «عظيم ·· هذا معناه أن بصماتى ماتزال باقية على قلبها ·

وتحسس تذكرتى العشـــاء الراقص فى جيبه ·· وأثنى على اختياره ·· انهما جواز مرور سريع الى كل ما يتمناه ·

وقطع عليه أفكاره صوتها وهى تقول:

ذات رحلة وانا أقدم كوب برتقال فى الطائرة لشاب فرنسى أمسك بيدى ولم يفلتها حتى تزوجنا ·· وعشت حقبة فى باريس ·· لك أن تفخر أنى مسحت الباريسيات ··كان اسمى هناك نفرتيتى ·· ولكنى ضقت بروبير ·· كان غيورا جدا وكأنه شرقى ·· وركلت ملابينه وتحررت ·

بعد ربع ساعة كانت قد وصلت الى زواجها الثالث الذى انتهى بطريقة لايد لها فيها ·· مات المسكين فى حادث تصادم ·· وأقسمت ألا تتزوج بعد ذلك أبدا ··

قال لنفسه حسنا ·· انتهت من الحديث عن زوجتى وعن أزواجها·· جاء دورى ·· الارامل يبحثن دائما عن عزاء وينشدن الرجل الكتوم ·

واشار للجرسون طلبا للكأس الثانية احتفاء بالبداية الحقيقية لهذااللقاء الحلو ولكنها اعترضت وهى تقول له بصوت ناعم أنها مضطرة أن تنصرف :

كنت أود ياأحمد أن أقضى السهرة معك ·· ولكن وأنا أتأهب للقائك وصلتنى برقية من جون ·· جون وصل فجأة الى القاهرة ، وسيقضى فيها الليلة فقط ·· انه سينمائى أمريكى يفكر أن يسند لى بطولة فيلم تدور حوادثه فى اليابان ·· اعطنى رقم تليفونك ، سأتصل بك ··

وأدرك وهى تدون رقم التليفون انها لن تتصل به فقد كتبته وهى عجول ·· لم تحاول التثبت من صحته ، وعندما امتنع الحبر على أحد الارقام لم تحاول أن تعيده ·

واستكبر أن يقول لها ان فى جيبه تذكرتين لن يقدر على شراء مثلهما مرة أخرى ·

نظر الى ساعته بعد أن ذهبت سهام انها السادسة والنصف ·· ماذا يفعل ببقية الوقت الذى وهبه للمغامرة · · لم يبق الا أن يذهب الى مكتبه فى الشركة كدأبه كل يوم ·

كل موظفى الحسابات انتهزوا فرصة غيابه ، وكأنها فرصة لاتعوض ،زاغوا ، الا رجاء سكرتيرته ·· يالها من فتاة مخلصة لواجبها ·

وكان شعر رجاء منسدلا على جبينها وهى منحنية على أوراقها وعندما تنبهت الى قدومه رنت باحترام وابتسمتوهى شبه شاردة ·

وكان يفصل بين حجرته وحجرتها باب متأرجح ، وداس الجرس ، ودخلت رجاء وعلى محياها الابتسامة الوديعة التى يعرفها ·· انها ليست جميلة · كأنها تعتذر بهذه الابتسامة عن خلو وجهها من الفتنة ·

وطلب أحمد منها بعض الاوراق ·· ورمق قوامها وهى منصرفة·· غصن فتاة فى العشرين ·· لم يفعل ذلك من قبل دائما يحترم مكتبه وعمله ·· ولكنه لم يعد الى مكتبه من قبل وفى رأسه كأس الويسكى ·· وقال له كأس الويسكى : « غازل رجاء » وعندما جاءت بالاوراق تأملها من أمام ، كما تأملها من خلف ·

ياأحمد لاتضيع الفرصة ·· اثار لهزيمة شبرد ·· فى جيبك تذكرتين

يسيل لهما اللعاب ·· ما أجمل أن تراقص هذا الغصن وتحتويه بين ساعديك ·· قل أن ترفض فتاة عشاء راقصا ·

وطلب اليها أن تدع الباب بينهما مفتوحا ، وراقبها وهى منحنية على أوراقها تكتب بيد وخدها متكىء على راحة يدها الاخرى، وابتسامتها الوديعة تطفو على الجزء الظاهر من وجهها ·

كيف يفاتحها ·· تردد وجبن ، ثم خف الى نجدته مثل يقول : فاز باللذة الجسور ·

وصمم أن يحرق تردده وصاح فجأة: وما رأيك يارجاء ·· عندى تذكرتين لعشاء راقص ؟

ورفعت خدها عن راحة يدها · · وظهرت بقية الابتسامة ·· ابتسامة

واســـعة تضج بالفرح ·· وقالت له وأصابعها على قرص التليفون :

ـ اذا سمحت لحظة ·· ســـأتصل بالبيت ·

وأحس أن راســـه تلف مـع قرص التليفون ·· كما أيقن أن سهام لن تلقاه مرة أخـرى يوقن الآن أن رجاء قبلت الدعوة ، وان الاتصـــال بالبيت اجراء شكلى ··

ونهض ·· وصار خلفها وهى تتأهب للحديث بعد أن تضع السماعة ، سيطبع قبلة فى شعرها ·· فاز باللذة الجسور·

وبينما هو يتأهب لذلك فوجىء بهـا تهتف فى التليفون :

ـ باصفوت ما رأيك ·· عنـــدى تذكرتين لعشاء راقص ·· هل تستطيع الحضور الآن لكى نذهب معا ·· اذن أستطيع أن أقبلهما ·· انهما هدية ·· من رئيسى ·· وأنت أيضـــا يجب أن تشكره ·

وأعطت السماعة لأحمد وهى تقول :

ـ صفوت ابن خالتى ·· وخطيبى ·

وابتلع احمد القبلة التى تأهبت على شفتيه وهو يتحدث الى ·· خطيبها ·

وأثناء ذلك لمحها وهى تحاول اخفاء بعض الاوراق على مكتبها ·· مرحى ·· انها ليست كشوفات حسابات ·

ورفع الدوســـيه عن الورقة التى حاولت أن تخفيها ·· واذا هى رســـم كاريكاتورى له ·

وقالت وهى تنكس رأسها : انهـــا هوايتى·· كلما انتهيتمن واجباتى·· وقد أحببت دائما أن أرسمك ·· مات أبى وانا طفلة ·· ولست أذكر وجهه ولكننى دائما تخيلت أنه كان يشبهك ·

وسكت وهو يفحص الصـــورة ·· انها أول مرة يرى فيها نفسه فى رسم كاريكاتورى ·· شعرات قليلة واقفة فى رأسه ·· حقيبة من الدهن تحت ذقنه·· كرة كبيرة منبعجة تحت صدره ·

وألقى التذكرتين على المكتب وانصرف متجهما ··

وفى الصباح عندما سبقت رائحـــة القهـــوة زوجته الى حجرة النوم كان ما يزال عابسا ·

وعنـــدما ســـألته فريدة عن سبب عبوســـه أخرج الصـــورة من حيث كان يخفيها وقال لها :

ـ هل يرضيك ان أرسم هكذا ؟

وتأملت الصورة وهو يراقبها ·· وادهشه أن ملامحها تنطق بالرضا ·· وغمغمت بصوت منتعش :

ـ صورة جميلة ·

ووجد نفسه يقول :

ـ لو عرفت الثمن الذى دفعته ···

وقاطعته : لا يهم ·

ثم أضافت وهى تردد بصرها بينـــه وبين الصورة وفى صوتها زهوة :

ـ هذا أنت ·· أنت بالضبط ·

وقبلته فجأة ··

وأيقن بعد القبلة أن الثمن ·· لم يكن غاليا ··